



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2020/01/11

السنة الثانية عشرة - العدد: 4515

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

تمهيد:

هذه المحاولة هي مجرد لمحات دالة، لعلها تمهيد لدراسة شاملة، فالمسألة تستحق.

سوف تبدأ برباعيات جاهين انطلاقاً مما جاء في الفصل الأول، وسوف نحاول أن نقلل من التكرار ما أمكن ذلك، ثم ننقل إلى رباعيات الخيام وهو يدعونا إلى ما لم يعينهُ لنختم برباعيات سرور وعلينا أن نرتدى دروع الوقاية من صواريخها العابرة لكل معدات الأمان.

أولاً: رباعيات جاهين

مقدمة:

لا مفر من بعض الإعادة، حيث كما ذكرنا: صلاح هو رباعياته ورباعياته هي شخصه، وأنت تجد نفسك مع رباعيات جاهين طول الوقت وسط جوقة من الأنغام الحانية على الرغم من عمق الألم، وسوف يصلنا النبض الصادق على الرغم من تكاثف الحيرة، وقد تظل هذه الرباعيات أحد المراجع الأساسية لفهم الإنسان والكشف عن طبيعة النفس البشرية، وهنا لا بد من الإشارة ابتداءً إلى أننا إذا بالغنا في الخلاف حول قضية العربية والعامية (وأنا مع الأولى دون تردد) فإن ذلك، في مجال الإبداع، ينبغي أن يقتصر على أعمالٍ بذاتها، وأن ينتقى تماماً من مجال النقد، خاصة ما يسمى بالنقد النفسي

بالعامية هي الأصل في طلاقة الفكر، وتلقائية التعبير، نحن نحبه بالعامية، ونحلم بالعامية، ولهذا لا بد أن نعاملها معاملة اللغة النابضة الأصل، وخاصة ونحن نحاول أن نعرف ما هو نحن، وكيف نحن، فالدعوة إلى احترام الإنتاج العامي الصادق والجاد ببره، على الأقل، أن النقد يتعاملون مع النص بلغة أجنبية، كما هي، أو كما ترجمت إلى العربية، أفلا يجدر بنا أن نعطي النص بالعامية نفس قدر الاهتمام؟ وحتى لا نبالغ فإن كل ذلك لا يعنى تفضيل العامية على الفصحى، ولا يعنى كذلك العكس، كل ما فى الأمر هو احترام معنى ما هو "لغة"، واستعمال كل لغة فى مجالها، ولأغراض بذاتها، والعامية فى هذا السياق، النقد، ودراسة النفس، لها قيمة فى ذاتها بذاتها.

الفرض:

تناسب جرعة الأمان مع جرعة التوجس الإيجابى:

جاهين يصحبنا فى أمانة مع رحلته بين الداخل والخارج، وهو لا يقف موقف الناصح الواعد، ولا يلوح بحل بذاته (اللهم إلا الانتناس والاقتراب من الناس أحيانا..)، كما أنه لا يهاجم أحداً مقاتلاً (مبادئاً أو مدافعاً)، بل يبدو أنه قرّر ألا يهاجم، لا عجزاً، ولكن رحمةً، ورقةً، وتألماً مشاركاً.

والفرض الذى نبدأ به هو أن صلاح جاهين يبدو كما ظهر فى الرباعيات، أنه قد عايش جرعة حقيقية وأصيلة من الأمان) منذ الطفولة فى الأغلب)، تمتع بها بلا خوف، ولكنه لم يرتو تماماً، ولم

أننا إذا بالغنا فى الخلاف حول قضية العربية والعامية (وأنا مع الأولى دون تردد) فإن ذلك، فى مجال الإبداع، ينبغي أن يقتصر على أعمالٍ بذاتها، وأن ينتقى تماماً من مجال النقد، خاصة ما يسمى بالنقد النفسي

العامية هي الأصل في طلاقة الفكر، وتلقائية التعبير، نحن نحبه بالعامية، ونحلم بالعامية، ولهذا لا بد أن نعاملها معاملة اللغة النابضة الأصل، وخاصة ونحن نحاول أن نعرف ما هو نحن

الدعوة إلى احترام الإنتاج العامي الصادق والجاد ببره، على الأقل، أن النقد يتعاملون مع النص بلغة أجنبية،

كما هي، أو كما ترجمت إلى العربية، أفلا يجدر بنا أن نعطي النصر بالعامية نفس قدر الاهتمام؟

كل ما في الأمر هو احترام معنى ما هو "لغة"، واستخدام كل لغة في مجالها، ولأغراض بذاتها، والعامية هي هذا السياق، النقد، ودراسة النفس، لها قيمة في ذاتها بذاتها

إن مصدر نبض الوجدان الفرجانقباضى هو نوع من الأمان المسنود بدعم إيجابية التوجس.

هذا النوع من الوجود يتجه طول الوقت إلى موضوع "حقيقي"، (الأخر/الناس)، بما يحمل من مخاطر الألم، ومكابدة العلاقة الصعبة الموضوعية الحيّة، لكنه يستمر، ومن ثمّ الإبداع النابض

"مختار بحق، وأحبكم مهما فعلتم، والموت ثقيل الظل، ولست قادرا على الكره أو القسوة أو القتل، مهما تمرنى الحزن.. قلت لكم: أحبكم .. وسأموت وسطكم فهل تسمعون من هنا البداية: "من أنا؟"

يؤلف ابتداء بينها وبين نقيضها، ولم يستغرق فيها. وفي الوقت ذاته لم ينكرها أو يتنكر لها، فجاءت رحلته (في الرباعيات أساسا وفي غيرها) تعلن حيويتها، وتستشق هواء رياضها، وتقطف أحيانا من ثمارها. ويبدو أن توازن هذه الجرعة وحركيتها قد اكتملا بالحصول أيضا على جرعة مناسبة، ربما أقل، من التوجس "الصحي الإيجابي".

ولم يكن هذا التوازن تسوية ساكنة، ولا هو ولاف نمو منطلق في ذاته، بل يبدو أنه كان حركية إيقاعية دؤوب جعلت الاستعانة بفعل الإنتاج الإبداعي بمختلف أدواته، إلحاحا لا يهدم، وهكذا واصل صلاح توازنه وهو يمشى على حبل الوعى الوجودى الحاد الذى من بعض عطاياه ما تركه لنا في هذا العمل الفذ "الرباعيات" بما فيها من دلائل دوام الحركة والتناوب والحيوية. وفي الوقت ذاته بما تعلن من أن ثم افتقارا مازال يلح طول الوقت، افتقاراً إلى شيء ما، ثم جوع طيب متجدد، لا هو يرتوى، ولا هو يتمادى في سعار جشع، ولا هو ينخدع بتسكين مخدر.

ولكى يسمح هذا التوازن الحركى بهذا التناوب الخلاق، فإننا نتوقع أن تكون جرعة الأمان (مع وجود جرعة التوجس) حقيقية وعميقة، وفي الوقت ذاته، ناقصة وواعدة. وبتعبير أصعب: إن مصدر نبض الوجدان الفرجانقباضى هو نوع من الأمان المسنود بدعم إيجابية التوجس.

وهذا النوع من الوجود يتجه طول الوقت إلى موضوع "حقيقي"، (الأخر/الناس)، بما يحمل من مخاطر الألم، ومكابدة العلاقة الصعبة الموضوعية الحيّة، لكنه يستمر، ومن ثمّ الإبداع النابض. لم يقف صلاح خطيبا فينا أصلا، بل أخذ يناجى نفسه على مسمع منا، يهددها ويهددهنا، لم يدع إلى اللذة كحل سحرى (الخيام)، ولم يقدر "الآن" شكا في كل احتمال آخر، وفي الوقت ذاته هو لم يلهب ظهر أحد، أو يبصق في وجه عابر (سرور) مهما عاش وحدة مرارة الهجر أو القسوة أو التغافل، كذلك مهما طالت عليه حيرته، وأحاطته مخاوفه، جملة مفيدة، وصلتني منه من خلال رباعياته جعلتها فرض هذه القراءة، هذه الجملة تقول:

"مختار بحق، وأحبكم مهما فعلتم، والموت ثقيل الظل، ولست قادرا على الكره أو القسوة أو القتل، مهما تمرنى الحزن.. قلت لكم: أحبكم .. وسأموت وسطكم فهل تسمعون أن أحيا بينكم؟ بكم؟ حزينا فرحا مثل الطقس والفصول ودورات الليل والنهار؟! أستاذنكم أن تقبلوني؛ حتى يحين حينى.. ولنفرح معاً، ونحزن معا ما أمكن ذلك، ويبدو أنه ممكن...، ولكن.. لماذا كل هذا؟ ومع ذلك فيمكن أن نعيش... لم لا؟"

من المنيع إلى المصب:

هكذا يمكن أن نواصل قراءتنا لرباعيات جاهين بدءاً بهذا الفرض الذى يشير كيف أن جاهين يعلمنا، إذ يعايش صدق وعيه، أن فرحه واكتنابه ينبعان من هذا المصدر المشترك الواحد، وهو: تلقي جرعة طيبة من الأمان الأساس، دون إلغاء التوجس، وهذا يعد بالتالى، بإمكان عمل علاقة حقيقية بالآخرين. هي رحلة حيرة صادقة، وتساؤل متكرر، ومواقف متبادلة، ونقائض مواجهة ومشاركة (وإلى درجة أقل: مصارعة شريفة معلنة)، وجاهين يقبل ويستطيع أن يقف متواضعا أمام "السؤال" دون الإسراع بالإجابة، فهو لا يهرب من السؤال ولا يستعجل الإجابة باعتبار أن السؤال هو فعلٌ وجودي في ذاته، كذلك هو لا يلغى أحد شقّي السؤال بالاندفاع الهجومى (مثلما سوف ترى في رباعيات سرور)، أو حتى الغزل في التسكين الذى (كما عند الخيام)، جاهين يحتمل الغموض دون سخط رافض، ويقف أمام التناقض بصبر يقظ، وهذا هو ما يميز هذا النوع من الوجود الدورى النابض.

يا باب أيا مقفول إمتى الدخول

صبرت يا ما والى يصبر ينول

(2) (12/211)

من هنا البداية: "من أنا؟"

أن أحيأ بينكم؟ بكم؟

أستأذنكم أن تقبلوني؛ حتى
يحين حيني.. ولنفرح معاً.
ونعزّن معاً ما أمكن ذلك،
ويبدو أنه ممكن... ولكن..
لماذا كل هذا؟ ومع ذلك
فيمكن أن نعيش... لِمَ لا؟”

أن جاهين يعلمنا، إذ يعايش
صدق وميّه، أن فرحه واكتناجه
ينبعان من هذا المصدر
المشترك الواحد

هو في بحثه عن ذاته
يتفلسف بالمعنى المعاشي
الفعلي، على الرغم من نقده
لسوء فهم ما شاع عن الفلاسفة.
ما تعرفوش إن الفلاسفة يا هو
اللى يقولوه بيرجعوا يكذبوه

هو في معاشته فعل الفلاسفة،
يتجاوز ويعلو، حتى ينظر إلى
عالمنا، وإلى مسارنا، وإلى
نفسه، من موقف مترفع، لكنه
ليس متعالياً على كل حال:
على بعد مليون ميل من أرضنا

وكان الإبداع عند جاهين - في هذا العمل تحديداً: الرباعيات - هو محاولة معرفية ذاتية مجاهدة صابرة مثابرة (سنين) لا تتخطى الذات، بل تبدأ بها، فجاهين يحسم الأمر إذ يعلن صراحة محاولاته الدؤوب نحو تحديد ”من هو؟“ بل ”ما ليس هو“ أيضاً، وجاهين لا يقتصر في محاولته تحديد معالمه على جانب ظاهر من ذاته، بل هو يغوص في طبقاتها مهما كان الثمن، ثم إنه لا ينسى أن يعرّج على جسده بموقعه المحورى كذات بدنية عيانية لوجوده، ولعل ممارسته لإحدى صور الفن التشكيلي (الكاركاتير) قد ساعدته في ذلك بشكل مباشر، وصورة ”العبد لله“ (التي تمثله شخصياً) ظلت تحضر في رسومه بشكل دال، كما أن علاقته بجسده لم تكن غير مباشرة في شعره، دون استثناء الرباعيات، نسمعه وهو يقبلُ جسده في سخرية حانية:

إزأى أنا يا تخين بقيت بهلوان!!
(22/216)

وهو لا يقدم لنا ماهيته فخورا بها هاجيا الآخرين (قارن سرور فيما بعد) بل يتساءل في صدق مباشر عن معنى ظاهره، وما يتبدى له:

يا مرايتى يا للى بترسمى ضحكى
يا هلترى دا وش ولا قناع(3)
(25/218)

وهو إذ يتعرف على نفسه، يحد من غلوائها، (عكس فخر سرور)، ويعلن ذلك من خلال الإسقاط حيناً، والتعميم حيناً:

إنسان أيا إنسان ما أجهك
(42/226)

حُقرا وفوق كوكب حقير محتقر
(107/259)

وهو بذلك لا يحقر نفسه؛ ولا يحقرنا بالتالى تبريرا للعجز؛ أو تشريعا لليأس، بل هو يفعل ذلك فيما يبدو تواضعا حافزا، على طريق حفز لانطلاق ليس له حدود:

أنا اللى بالأمر المحال اغتوى
(102/256)

وهو في بحثه عن ذاته يتفلسف بالمعنى المعاشي الفعلي، على الرغم من نقده لسوء فهم ما شاع عن الفلاسفة.

ما تعرفوش إن الفلاسفة يا هو
اللى يقولوه بيرجعوا يكذبوه
(40/225)

وهو في معاشته فعل الفلاسفة، يتجاوز ويعلو، حتى ينظر إلى عالمنا، وإلى مسارنا، وإلى نفسه، من موقف مترفع، لكنه ليس متعالياً على كل حال:

على بعد مليون ميل من أرضنا
(41/226)

وهو يعلن . على الرغم من كل ذلك ومعه، محورية وجود الإنسان في الكون، وكذلك موقفه من طبيعة المعرفة وكأنه يلخص الفلسفة في شطر بيت واحد من رباعياته:

والكون دا كله جوه عقل البشر
(107/259)

الحركة والتغيير (فى الإنسان، والطبيعة)

نستطيع القول مباشرة إن الحركة والتغيير هما أهم ما تقدمه رباعيات جاهين. وذلك فى مقابل الألم

واللذة عند الخيام، والكرف والفر عند سرور، ورباعيات جاهين تعلن ذلك أحيانا بشكل مباشر، كما يمكن أن نستنتج من خلال حيويتها الغامرة، والمغامرة، من بعد غير مباشر .
وتقفز الصورة المباشرة إلى وعينا وكأنها الحق النابض طول الوقت، وهى تعلن عن فكرة نفسية قال بها أتورانك، وإريك إريكسون، وبييرلز، والرخاوى، (4) وغيرهم كثير، وهى حتم استمرار الحياة من خلال تكرار الموت والولادة؛ بحيث لا يتوقف النمو والتوليد إلا بدخول القبر .

أنا كنت شىء وصبحت شىء ثم شىء

.....

لا بد ما يموت شىء عشان يحيا شىء

(66/228)

والمهم هنا استقبال كيف أن الكيان نفسه الذى يبدو وكأنه يموت، هو هو الكيان الذى يُنتج المولود الجديد، فإعادة الولادة، إنما تعنى خروج الجديد الطازج من جوف القديم الزائل، ولكن محتويًا إياه (الجديد يحتوى القديم، لا يلغيه، ولا يحل محله).

وهذه الصورة المباشرة تظهر واضحة فى مُواكبة الرباعيات لتغيرات الطبيعة، وهى مواكبة جدلية وليست مشاركة مُستسلمة، فالصور تتلاحق بين فصل وفصل، وبين نهار وليل، وبين نبض ونبض. وجاهين يصدم اللذين اعتادوا رؤية حركة العالم فى استقطاب مسطح، وكأن الربيع دون الشتاء، مثلا، هو فصل الحياة، وكأن هذه الفصول لا تكمل بعضها بعضا، بل تقابل بعضها بعضا استقطابا، وهو، إذ يؤكد هذا البعد الجديد الذى يرفض هذا التسطیح والاستقطاب الخطي، يذكرنا بأنه "مثل الطبيعة مثل الإنسان"، فلنتعلم منه وهو يقول:

وحاجات كثير بتموت فى ليل الشتا

لكن حاجات أكثر بترفض تموت.

(60/235)

فوظيفة الشتاء، ومكافئاته داخلنا، ليست الكمون الميت، كما يبدو ظاهرا . وإنما الانتظار المستوعب، وهو الحمل الضرورى للولادة الكاملة، وما يموت فى الشتاء، هو ما ينبغى أن يموت، وهو ما يلائم هذا الطور من الدورة، وليس الأمر مجرد إعلان موت أشياء، بذاتها دون أخرى، وإنما هو تأكيد أن كفة الحياة (رفض الموت) هى الأرجح دائماً (لاحظ لفظ "أكثر": لكن حاجات أكثر بترفض تموت)، لاحظ الفرق بين تعبير "بترفض تموت"، والتعبير السلبي الذى لم يقله صلاح "لا تموت" (ما بتمتشت) فرفض الموت يولد حياة أكثر زخما وإقداماً.

ثم إن المسألة ليست كما شاع من اختزال قببح يشير إلى أن الشتاء يعنى الموت، فى حين أن الربيع يعنى الولادة، (أنظر الفصل الأول)، وإنما تكون الحياة فى أروع صورها؛ حين تتناسب مع مكوناتها، "زهر الشتا طالع فى عز الشتا".

والشتاء قد يكون حملاً لما سوف تتجبه الحياة فى الربيع، فإذا كان الربيع هو فصل الولادة، فالشتاء هو الرحم الحانى الذى أدى إلى هذه الولادة، كما أشرنا فى الفصل الأول.

والالتقاء بين ولادتنا من داخلنا، وولادة الطبيعة (إعادة تقحها وبسطها)، تظهر فى هذه الرباعية فى تكاتف لا يحتاج إلى شرح.

والولادة... ليست دائماً بهجة وفرحة، نذكر فى ذلك مثلاً: أتورانك وهو يتكلم عن صدمة الولادة، وحين تغلب الصدمة (ربما الواقعية) على المناغاة (الطفلية)، يعلن جاهين أنه:

"نسمة ربيع لكن بتكوى الوشوش"

(50/220)

ومع أن جاهين قد صدمنا أحيانا فى الربيع نفسه، إلا أن صدمته لم تسلب من الربيع بهجته، وإنما أعلنت أن الولادة تصبح هى التغيير المتجدد، إذا تواصل الاتصال بين الأم (الرحم . الطبيعة) والمخلوق

هو يعلن . على الرغم من كل ذلك ومع، محورية وجود الإنسان فى الكون، وكذلك موقفه من طبيعة المعرفة وكأنه يلخص الفلسفة فى شطر بيت واحد من رباعياته: والكون ذا كله جوه عمق البشر

أن الكيان نفسه الذى يبدو وكأنه يموت، هو هو الكيان الذى يُنتج المولود الجديد، فإعادة الولادة، إنما تعنى خروج الجديد الطازج من جوف القديم الزائل، ولكن محتويًا إياه

جاهين يصدم اللذين اعتادوا رؤية حركة العالم فى استقطاب مسطح، وكأن الربيع دون الشتاء، مثلا، هو فصل الحياة، وكأن هذه الفصول لا تكمل بعضها بعضا، بل تقابل بعضها بعضا استقطابا

وظيفة الشتاء، ومكافئاته داخلنا، ليست الكمون الميت، كما يبدو ظاهرا . وإنما الانتظار المستوعب، وهو الحمل الضرورى للولادة الكاملة

الجديد، أما إذا كانت الولادة هي انفصال الطفل قسرا عن الأم، وليست امتداد الأم طوعا في الطفل، نتجت هذه المضاعفات التي التقطها حدس الشاعر وأعلنها، فنسمة الربيع يفترض أن تكون نفس (بفتح الفاء) الأم الهادىء، وقد انتقل طفلها إلى حضنها (العش الجديد: بديل الرحم المرحلي)، وهى إذا لم تكن كذلك فإنها النار الكاوية؛ لأن هذا الطفل يولد فلا يجد إلا ريحا تصفع وتكوى، ما دام الطير بدون عش حقيقى: رحم الدفء الأموى.

ومن واقع إفاقتنا للوجه الآخر للشتاء ثم صدمتنا المحتملة (5) فى الربيع، يتم الحفز لنرى الشتاء والربيع داخلنا أيضا، وليس مجرد فصلين فى الطبيعة؛ فجاهين بما فعل لم ينتقص من الربيع بهجته، ولم يسلب من الشتاء وقاره وجديته (ورهبته) - كما أشرنا فى الفصل الأول - بل إنه أتاح لنا أن نرى نبض الحياة ممتدا بلا انقطاع، سواء بتصحيح فكرتنا عن السكون الذى قد لا يكون موتا بل كمون الحمل (الشتاء)، أم بالولادة الجديدة (الربيع) التى تحتاج منا إلى وعى وامتداد متصل.

هكذا يعلمنا جاهين بعدا مهما يضيف إلى مفهوم ما هو سعادة، أو ما نتصوره كذلك، فهو يعلمنا أن المهم فى نغم الحياة المتكامل، هو تناسب الشئ مع أصله وطبيعته، فروعة الحياة تظهر فى تلازم زهر الشتاء مع الشتاء، وتناغم طفل الربيع مع زهر الربيع. وحوار الإنسان مع الطبيعة لا يعنى الاتفاق فقط، بل يعنى التكامل أيضا، وأساسا.

.....

(ونكمل الأسبوع القادم "نبض الطبيعة.. وتفتح الحياة")

- [1]المقتطف من كتاب "رباعيات ورباعيات" (الطبعة الأولى 1979، والطبعة الثانية 2017) والكتاب متاح فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف www.rakhawy.net وهذا هو الرابط

- [2]رقم الصفحة عموما يشير إلى طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977.

- [3]من هنا لا بد أن استسمح القارئ فى إعادة بعض مقاطع من رباعيات سبق الاستشهاد بها فى الفصل الأول، فهو تكرر يبدو حتمى للإبانة.

- [4]يحيى الرخاوى "دراسة فى علم السيكيوباتولوجى" 1979.

- [5]أستعمل كلمة صدمة بمعنى وظيفتها الإبداعية. أى تلك الرسالة التى تفاجىء ما تعودنا، فتزهز بإضافة بعد جديد إليه، أو إلزام إعادة رؤيته

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD110120.pdf>

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقىا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمى

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2020 1 "شبكة العلوم النفسية العربية" (الاصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعها التاسعة عشرة وتدخل عامها العشرون من التأسيس

19 عاما من الضج... 17 عاما من التواصل

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>

ما يموت فى الشتاء، هو ما ينبغي أن يموت، وهو ما يلائم هذا الطور من الدورة، وليس الأمر مجرد إعلان موت أشياء، بذاتها دون أخرى، وإنما هو تأكيد أن كفة الحياة (رخص الموت) هى الأرجح دائما

هو يعلمنا أن المهم فى نغم الحياة المتكامل، هو تناسب الشئ مع أصله وطبيعته، فروعة الحياة تظهر فى تلازم زهر الشتاء مع الشتاء، وتناغم طفل الربيع مع زهر الربيع

حوار الإنسان مع الطبيعة لا يعنى الاتفاق فقط، بل يعنى التكامل أيضا، وأساسا